من مبارك إلى مرسى: الشكر لكم

كان السؤال عن المشاعر التى تنتاب الرئيس السابق حسنى مبارك فى محبسه، وهو يتابع تحول الثورة التى أطاحت به إلى أزمة تستحكم حلقاتها يوما بعد يوم، أحد أكثر الأسئلة التى يتوق كثير من المصريين إلى إجابة عنها. وهذا سؤال معرفى بالأساس، قبل أن يكون مثيرا للفضول، لأنه يتعلق بقضيتين من أهم قضايا السلطة إحداهما عامة والأخرى مرتبطة بحالة مبارك وإن لم تكن مقصورة عليه.

أما القضية ذات الطابع العام فهى مدى قدرة الحاكم الذى يُرغم على مغادرة السلطة على مراجعة المشهد خلال فترة حكمه بطريقة موضوعية، والإقرار بالتالى بأن أخطاءه هى التى أدت إلى عزله وليست مؤامرات حاكتها ضده قوى داخلية أو خارجية.

وأما القضية المرتبطة بحالة مبارك، ولكنها لا تقتصر عليه، فهى الإمعان فى إنكار الواقع. فقد كان هو أحد أكثر الحكام فى زمننا إنكارا لما يحدث حوله، إلى حد أنه بدا فاقدًا البصر وليس فقط البصيرة، بخلاف زين العابدين بن على الذى بدا أنه شرع فى إدراك الواقع متأخرا عندما قال للثائرين عليه «فهمتكم»، وتحدث عن البطَّال (العاطل) والمطالب الحرية وغيرهما.

ورغم أن السؤال عن مشاعر مبارك ظل مثاراً طوال الوقت، فقد بدا أكثر إلحاحاً فى لحظات بعينها، جسدت تحول الثورة إلى أزمة وحملت فى

طياتها إمكان تحقق «نبوءته» المأساوية بشأن شيوع الفوضى بعده. فكان الانطباع العام هو أنه يشعر بارتياح يعينه على تحمل آلام انتقاله من القصر إلى السجن كلما تفاقمت الأزمة، وازداد بالتالى من يكفرون بالثورة التى أزاحته من السلطة.

وإذا صح هذا التحول من الألم والكآبة إلى الراحة وربما شىء من النشوة، فالأرجح أن مشاعره ظلت فى حالة عدم استقرار حتى منتصف العام الماضى عندما جلس الرئيس محمد مرسى على مقعده. فربما توقع أن تختلف الأوضاع فى وجود رئيس منتخب عما كانت عليه فى ظل المجلس العسكرى. غير أن هذا التوقع لم يتحقق، بل حدث العكس حيث أخذت الأزمة فى الانتشار بدلا من أن تدخل مرحلة الانحسار.

وكان طبيعيًا أن يؤدى تبدد الآمال فى تحقيق أهداف الثورة إلى بلوغ الاحتقان المبلغ الذى خلق غضبًا عفويا وعشوائيا. وأنتج هذا الغضب ميلاً إلى العنف فى أوساط بعض قطاعات الشباب الأصغر سنًا والأشد حماسًا واندفاعًا، فى الوقت الذى بدأت قوات الأمن المركزى تمارس البطش الذى استخدمته أيام مبارك، فسقط شهداء جدد بدءًا بالشهيد جابر صلاح (جيكا)، وصولاً إلى الشهيد محمد الجندى.

وعندئذ، ومنذ 20 نوفمبر الماضى على وجه التحديد، أخذ التحول فى مشاعر مبارك يستقر، وبدأ شعوره بالارتياح يطغى على إحساسه بالألم والمرارة. وربما تغيرت مشاعره أيضا تجاه الرئيس مرسى. فالأكيد أن اليوم الذى جلس فيه مرسى على مقعد الرئاسة للمرة الأولى كان الأسوأ فى حياة مبارك. غير أن شيئا من التغير ربما طرأ على مشاعر الضغينة التى لابد أنها سيطرت عليه فى ذلك اليوم. فقد ألقت سياسة مرسى طوق نجاة له بعد أن مضى على نهجه وأعاد إنتاج سياسته الاقتصادية –

الاجتماعية، ولجأ مثله إلى الحل الأمنى؛ مما أدى إلى سقوط شهداء ووقوع ممارسات مخجلة، أبرزها السحل على أبواب القصر الرئاسى.

ولذلك فالمفترض أن تمتزج مشاعر مبارك السلبية تجاه مرسى بشىء من الامتنان والشكر كما يتضح من التحول الذى حدث فى خطاب محاميه فريد الديب ومنهجه. فكانت الذكرى الثانية لإزاحة مبارك مناسبة تخلى فيها الديب عن تحفظه السابق وبدا منتشيًا وهو يمسك بطوق النجاة الذى وجده فى السياسة الراهنة ويقول: «اتهام مبارك بقتل المتظاهرين ينطبق كليًا على الرئيس مرسى». ولم ينقص كلامه إلا أن يوجه الشكر إلى من أتاح له الانتقال من موقف الدفاع إلى موقع الهجوم على «أصحاب الهوى الذين يشوهون صورة مبارك» و«الكلام الكفتة» الذى يُقال عنه و«مخترعى قصة التوريث».

لقد بدا الديب فى حالة امتنان لمرسى. والأرجح أن هذه هى حالة مبارك اليوم أيضًا رغم كل مشاعره السلبية تجاه الرئيس الحالى.